

بيان من أجل يقظة سوريا

تحرير النفس من ظل الطاغية

تمهيد

لستين عامًا، علمنا نظامٌ مستبدّ الخوف، ودرّينا على الانقسام، وأقنعنا أن الفضاء العام ملكٌ له لا لنا. ولأربعة عشر عامًا، سال الدم في شوارعنا. لكن قبل عامٍ واحد، انكسرت السلاسل و هرب الأسد. ولكن، نقف اليوم أحرارًا بالقانون، أسرى بالعادات.

غادر الطاغية القصر، لكن عقليته ما زالت تسكن شوارعنا. تسكن في دخان السيجارة الذي نزفره في وجه طفل. في موقف سيارة نحته لأنفسنا فنخلق طريق جارٍ. في رشوة نبررها، وقمامة نتجاهلها، وجار نخذه. تسكن في بلادتنا، في إلقاء اللوم، في رفضنا للتغيير.

هذه لحظتنا لنختار غير ذلك.

لا لأننا أشرار، بل لأننا بشر نستحق أفضل مما كنا عليه. هذا البيان مرآة تعكس الحال وخارطة تبين الطريق. يسألني: ماذا عليّ أن أسقط؟ من عليّ أن أكون؟ وماذا يعني أن أكون سوريًا حقًا؟ لا متحررًا من الطاغية فقط، بل من ظله الساكن في داخلي؟

مرتكزات اليقظة

1. أستعيد الأمانة في الأماكن العامة و المشتركة

مررت بجانب القمامة في الشارع وتجاهلتها. أوقفت سيارتي على مساحتين لأتني مستعجل، فضيقت على غيري الطريق. رميت عقب سيجارة في حديقة عامة. تركت كوبي الورقي على حافة سور. فهل سألت نفسي يومًا: لمن هذا المكان؟

لسنوات طويلة، علمنا النظام أن الأماكن العامة ملكٌ له، أماكن سلطة ومراقبة وسيطرة. تعلمنا أن نراها أرضًا معادية، لا بيتًا مشتركًا. لكن هذه كذبة لم نعد مضطرين لتصديقها.

الأمانة تبدأ بالاختيارات الصغيرة.

حين أتعامل مع الشارع، الحديقة، مدخل البناء، كما لو أنه يخص عائلتي، فأنا أقول: أنا مسؤول. هذا لي، وأنا أحميه.

أن أمشي خطوات إضافية بدل أن أركن بتهور. أن أحمل قمماتي بدل أن ألقها. هذه ليست تفاصيل تافهة. هذه أفعال ثورية.

تأمل

هل ما زلت غافلاً عن الأذى الذي تسببه اختياراتي الصغيرة؟ هل أملك الشجاعة لأشعر بهذا الوعي، حتى لو كان مؤلماً؟

الأساس الإسلامي

«خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (الترمذي).
«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» (الشيخين).

2. أحمي الضعفاء من تبعات اختياراتي

دَخَنْتُ في غرفة أو مصعد يتنفس فيهما أطفال أو امرأة حامل أو مسن، أو مريض ربو، دون تفكير. قلت لنفسي: *هذا جسدي، وهذا خيارِي*. لكن خيارِي تحوّل إلى أذى لغيري.

هذه هي منطقية النظام البائد: إرادتي، متعتي، حاجتي. بغض النظر عن ثمنها على الآخرين. لستين عامًا، فعل الأقوياء المتسلطون ما شاؤوا، ودفع الباقون الثمن دمًا ومعاناة.

لن أُعيد إنتاج هذا المنطق في تفاصيل حياتي. الرحمة تعني السؤال قبل الفعل: من سيتأذى؟ هل سيسبب هذا معاناة؟

الطفل لا يختار الهواء الذي يتنفسه. المسن لا يملك أن يطلب مني التوقف. الحامل لا تستطيع حماية جنينها من دخاني. لكنني أستطيع أن أختار حمايتهم.

هذا ليس قمعًا للحريات. هذا ولادة ضمير يعرف أن حريتي لا تكون حقيقية إذا سُرقت من حرية غيري.

تأمل

حين أُسيء لمكانٍ مشترك، أليس هذا إنكارًا لانتمائي إلى هذه الأرض؟ كيف سيتغير سلوكي لو تعاملت مع كل مساحة عامة كأنها بيت جاري؟

الأساس الإسلامي

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَاقِهِ» (مسلم). ويشمل هذا الغرباء أيضًا، فصحتهم وممتلكاتهم لا تقل شأنًا عن صحتنا وممتلكاتنا.

3. أستعيد كرامتي، ولا أنتقص من كرامتك

عقود الخوف علّمتنا الاتكماش. اعتذرنا عن وجودنا. رأينا أنفسنا عبيدا لا مواطنين. وفي هذا التصاغر المكتسب، عوضه بعضنا بالقسوة: ننحني للأقوياء، ونتجبر على الضعفاء.

لكن الكرامة لا يمنحها طاغية، ولا تُسحب بقرار.

هي متصلة في كل إنسان: عامل النظافة، الأرملة، النازح، العامل، الطفل، وفيّ أنا أيضًا.

لن أنحني لأحد. ولن أطلب منك أن تنحني لي.

لن أهين عامل خدمة لأنني أستطيع. لن أتكلم بقسوة مع من لا يملك سلطة.

و لن أستخدم منصبِي أو شهادتي أو مالي أو جاهي أو علاقاتي لإذلال إنسان.

هذا ليس ضعفًا. هذا قوة. هكذا يتصرّف الأحرار.

تأمل

هل أتعامل مع الحارس كما أتعامل مع المدير؟ مع العامل كما مع صاحب المنصب؟ هل ما زلت أقيّم الناس بالمرتبة لا بالأخلاق؟

الأساس الإسلامي

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13)
فالقيمة الحقيقية تُقاس بالتقوى، لا بالسلطة

4. أُسهَم في الحلول، لا في تعقيد المشاكل

لَعَنَتُ الحكومة بسبب الحُفَر في الشوارع. شَتَمْتُ النظام بسبب الفساد. وانتظرتُ "هم" ليُصلحوا. و أثناء الانتظار، رُميتُ القمامة. و أثناء الشكوى، دفعتُ رشوة. وأثناء الغضب، لم أضف إلا سُمًّا جديدًا.

الحقيقة مؤلمة وبسيطة:
الدولة نحن. الشارع نحن. الفساد نحن.

نعم، هناك مؤسسات تُبنى، وقوانين تُكتب، وأنظمة تُصالح.
لكن لا يحق لي أن أشتكي من الفساد وأنا أبرر رشوة صغيرة.
ولا أن ألوم النظام وأنا لا أغير سلوكي.

النظام عاش على سلبيتنا. أفنعنا أننا عاجزون. أدمنا اللوم لأنه يُعفيننا من المسؤولية. لكن الخاطف لم يعد موجودًا. فما حجتنا؟

أين أستطيع أن أُسهَم اليوم؟ كيف أقلل المشكلة بدل أن أضخمها؟
فعل صغير واحد، تنظيف زاوية، دفع حق، الإبلاغ عن غش، تعليم طفل احترام المكان، أقوى من ألف شكوى.

تأمل

ما الذي ما زلتُ ألوم بدل أن أُغير؟
أين أستطيع أن أخرج من المشكلة وأصير جزءًا من الحل؟

الأساس الإسلامي

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (البخاري).
المسؤولية الآن، لا حين يكتمل النظام. و المسؤول ليس VIP
كما روج النظام البائد، بل أنه مسؤول يوم العرض.

5. أتحري الحقيقة وأرفض الشائعات

في زمن الخوف والاستبداد، تعلمنا تصديق الإشاعات، ونقل الكلام بلا تحقق، أو التسرع بالحكم على الآخرين. هذا ليس براءة؛ بل استمرار للظلال التي تركها الطاغية في عقولنا.

سأتحرى الحقيقة قبل أن أصدق أو أنشر أي خبر.
سأسأل، أبحث، أستمع، وأفكر قبل الحكم.
لن أسمح للشائعات أن تفرق بيني وبين جاري، أو أن تسيطر على قراراتتي.

تأمل

متى كانت آخر مرة نقلت فيها خبرًا بلا تحقق؟
كيف يمكن أن أكون مصدرًا للحق، لا للفتنة؟

الأساس الإسلامي

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» (الحجرات:6)
فما بالك عندما يكون الفاسق أممًا تداعت علينا تداعى الأكلة إلى قصعتها؟

6. اكسر حلقة اللوم وأستعيد قدرتي

لقد لُتُ والديّ على تربيّتي. ولُتُ الحكومة على قِلة الفرص. ولُتُ "المجتمع" على إخفاقاتي. وفي اللوم، سلّمت قوتي للآخرين. طالما انتظرتُ تغييرًا من أحد، بقيتُ ضحية. لكنني اليوم لم أعد ضحية. أنا حرّ. هذا لا يعني أن النظام عادل. إنه ليس كذلك. ولا يعني أن العقبات اختفت، لم ولن. الدنيا دار امتحان و النجاح منوط بالعمل لا بالنتيجة. يعني: حتى ضمن قيود حقيقية، لدي خيارات. أستطيع أن أختار كيف أتعامل مع الناس. أستطيع أن أختار الصدق. أستطيع أن أختار احترام المكان المشترك. أستطيع أن أختار النمو، التعلم، أن أكون أفضل من ظروفي. أن أكون أفضل من الأمس. النظام أبقانا صغارًا بإقناعنا أننا بلا قدرة. **ولا زلنا نحمل ذلك الجرح.** الكثير منا يتحرك في العالم كما لو كان عاجزًا. لكننا لسنا كذلك. سأتوقف عن انتظار الإذن لأكون صالحًا. سأتوقف عن انتظار النظام المثالي لأكون لطيفًا. سأبدأ الآن، بما لدي، حيث أنا.

تأمل

هل ما زلت ألعب دور الضحية بدل استعادة قوتي؟
ما الفعل الصغير الذي يمكنني فعله اليوم ليثبت لنفسي أنني
لست عاجزًا؟

الأساس الإسلامي

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11)
التغيير يبدأ من الداخل. يبدأ بي.
الحق مسؤولية، والبحث عنه واجب؛ والكلمة التي تُقال بلا
تحقق قد تُدمر ثقة المجتمع.

7. الشعور مرة أخرى، حتى لو كان مؤلمًا

علمتنا الصدمة ألا نشعر. تعلمنا البقاء عبر الانغلاق. أصبح الخدر (الطناش) درعًا. توقفنا عن البكاء، عن الغضب على الظلم، عن الاكتراث. لأن الشعور كان مؤلمًا. لكن الخدر لم يعد بقاءً. إنه قسوة. تجعلنا نتجاهل معاناة من حولنا. نجتاز طفلًا بلا مأوى دون أن نراه. ندخن قرب امرأة حامل بلا شعور بالذنب. نتغاضى عن الفساد لأننا تعبنا من الاكتراث. الخدر هو استمرار نظام الطاغية داخلنا. سأشعر مجددًا. سأحزن على ما فُقد، الدماء، السنوات، والأسر الممزقة. سأسمح لذلك الحزن أن يوقظني لا أن يشلني. سأشعر بالرحمة تجاه غريب. سأغضب على الظلم. سأفرح بلطفٍ صغير. سأتحمل وزن خياراتي. هذا ليس ضعفًا. هذا عودة إنسانيتك.

تأمل

أي ألم ما زلت أتجنبه؟
ماذا يعني مواجهته مع الحفاظ على الأمل؟
ما الشعور الصغير الذي يمكنني الشعور به بعمق اليوم؟

الأساس الإسلامي

بكى النبي ﷺ وبكى الصحابة معه عند وفاة ابنه.
الشعور ليس ضعفًا. إنه علامة قلب حي.

8. أتكلم بالحق من أجل الخير العام، لا لنفسي

عاقب النظام من قال الحق. تعلم كثير منّا الصمت للنجاة. عضضنا ألسنتنا، أوأمأنا بالرضى رغم اعتراضنا، صمتنا حين واجب الكلام. لكن الصمت لم يعد أماناً. والكلام غير الواعي ليس حرية.

فهناك فرق بين:

- الكلام لتفريغ الغضب أو الإهانة أو التظاهر بالفضيلة.
- والكلام للشفاء، لتصحيح برحمة و لبناء الأفضل.

سأتحدث بالحق حين يخدم الخير العام.

إن تكلمت للإذلال، أكون طاغياً. إن تكلمت للتلاعب، أكون فاسداً.

إن تكلمت بلا اعتبار للعواقب، أكون متهوراً. أما إن تكلمت التحذير من خطر، لتصحيح خطأ، للتعليم، للشفاء، فالكلام هدية. يتطلب ذلك شجاعة وحكمة.

تأمل

هل أتكلم لبناء أم لهدم؟ للشفاء أم للآذى؟
قبل الكلام، هل يمكنني التوقف وطرح الأسئلة:
هل هذا صحيح؟ هل هو ضروري؟ هل هو لطيف؟ هل فيه مصلحتهم؟

الأساس الإسلامي

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»
(رواه البخاري)
إن كان كلامي يمكن أن يجرح أو يشفي. فأنا أختار الشفاء.

9. أنا مؤيد للبلد، لا للأسد.

لكي أكن واضحاً و صريحاً:

- أنت مؤيد للأسد (شبيح) إذا رميت القمامة في الشارع، لأنك تقول: "هذا المكان العام لا يخصني. لبيده الآخرون."
هذا ما قاله النظام عن سوريا: "ليعاني الشعب، ليست مسؤوليتنا."
- أنت مؤيد للأسد (شبيح) إذا رشيت، غششت، بررت "الجميع يفعلها"، لأنك تقول: "القوانين لا تنطبق عليّ. مكسبي أهم من الثقة المشتركة."
- أنت مؤيد للأسد (شبيح) إذا نشرت شائعات، خنت ثقة، رأيت مصائب الآخرين فرصة، لأنك تقول: "البقاء أهم من الشرف. الفوز أهم من الثقة."
- أنت مؤيد للأسد (شبيح) إذا كنت خاملاً، متجاهلاً للظلم، متظاهراً بأن القسوة الصغيرة لا تهم، لأنك تسمح لمنطق الطاغية أن يعيش: "ما أهمية ذلك؟ لن يتغير شيء."

لكنك مؤيد للبلد إذا اخترت خلاف ذلك، حتى لو كلفك ذلك.

أن تمشي خطوات إضافية بدل إعاقه سير الآخرين.

أن تحمل قمامتك للمنزل. بدل أن ترميها في الشارع أو الحديقة.

أن تدفع حقك بصدق. أن تحافظ على وعدك. أن تشعر بألم جار وتبالي.

أن تتكلم بالحق برحمة. أن تحسن بعملك. أن ترفض الخدر.

هذا ليس سذاجة. إنه أمر صعب. لكنه نابع من ديننا و ما تتطلبه الحرية الحقيقية.

تأمل

في خياراتي الصغيرة اليوم. ركنت سيارتي، ما قلت و ما فعلت بلا مراقبة.
أي جانب اخترت؟ مؤيداً للأسد أم للبلد؟

الأساس الإسلامي

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» (مسلم)
القوة ليست سيطرة. القوة أن تفعل الصواب حين يكون الخطأ أسهل. أن تكون لطيفاً حين يمكنك أن تكون قاسياً.

10. أتعلم مجدداً ، رغم خوفي

"لقد فعلناها هكذا دائماً" (من يوم يومنا منعمل هيك) واحدة من أخطر الجُمَل في سوريا. ستون عاماً تعلمنا الخطأ. مدارسنا علمتنا الطاعة لا التفكير. الحفظ لا الفهم. مجتمعنا علمنا القبول لا التساؤل. الطرق القديمة حملت سموم الخوف. فلن أدافع عنها لمجرد الألفة.

التعلم الجديد يحتاج تواضعاً. الاعتراف بـ: كنت مخطئاً. لم أكن أعلم. أستطيع أن أفعل/أكون أفضل. هذا صعب، يبدو كالعار، لكنه حرية. كل معرفة جديدة تجعلك أكثر حرية. يمكن هو أصغر منك أن يعلمك شيئاً مفيداً. يمكن لشخص من خلفية مختلفة أن يظهر طريقاً أفضل. كتاب، حديث، تجربة، كلها دعوات للنمو. هل سأقبلها؟ أم سأتمسك بما أعرف حتى لو كنت مخطئاً، مفضلاً الألفة على الحق؟

أخي، أختي، سوريا القديمة ماتت. نحن سنبنّي شيئاً لم يكن موجوداً في ذاكرتنا الحديثة. أمة يفكر الناس فيها بأنفسهم، يمكن مُساءلة/مراجعة الطرق القديمة في التفكير، و يكون التعلم مستمراً. سوريا التي نضاهي بها ما سمعناه عن خيرها من أجدادنا و كل من زارها عبر التاريخ. الأمر مرعب وجميل بأن واحد. سأكون شجاعاً للتغيير. سأكون متواضعاً للتعلم.

الأساس الإسلامي

«طلب العلم فريضة على كل مسلم» (الترمذي)
مما يدل على أن التعلم ليس مقصوراً على مرحلة معينة من الحياة، بل هو مسؤولية مستمرة

تأمل

ما الذي أدافع عنه لمجرد أنه "هكذا كان دائماً"؟
أي معتقد أو ممارسة مستعد للتشكيك بها؟
ماذا أخاف أن أتعلم فأغير و أتغير؟

11. أبني الثقة، تفاعلاً تلو الآخر

ازدهر النظام لأننا لم نثق ببعضنا. خلق جوّاً من الشك والخيانة والخوف. حتى العائلات انقسمت. تعلمنا: لا تثق بأحد. الجميع يراقب. الجميع جاسوس محتمل للنظام. نسجن أنفسنا بجدران من صنعنا. لا زلنا نحمل الجرح. أراه في تفاعلاتنا. جاهزون للانزعاج، نتصور الأسوأ، نحسب حسابات الماضي. لا نؤمن بأن الناس قادرين على التغيير.

لكن الثقة ليست سذاجة. إنها أساس كل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش. بدون ثقة، لا صداقة، لا مجتمع، لا عمل، لا تعاون، لا مستقبل. مجتمع من البشر المعزولين والخائفين لا يمكن أن يبني شيئاً. سأكون جديراً بالثقة. سأفي بوعدتي، حتى لو كلفني ذلك. أرى الجيران حلفاء، لا منافسين. أمنح الناس ثقة مبدئية. أمد يدي أولاً. أؤمن بأن التغيير ممكن.

ليست هذه بسذاجة. إنها فهم: الثقة تبدأ بي. إن غششت أو كذبت أو تصرفت بأنانية، لماذا سيثق بي الناس؟ لكن إن كنت صادقاً، أميناً، حريصاً على مصلحة الآخرين، تنمو الثقة. شخصاً شخصاً و علاقة علاقة . نُعيد بناء ما دمّرهُ النظام البائد من ثقة مجتمعية.

الأساس الإسلامي

«احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا» (أحمد)

تأمل

من غششت حتى ولو قليلاً؟
من أذيت بعدم الوفاء بوعدتي؟
هل أستطيع أن أبدأ بإصلاح الثقة؟
لمن سأكون جديراً بالثقة اليوم؟

12. أعلم أن الحرية لم تكتمل بعد

سقوط الأسد كان سريعاً. لكن ليقظتنا طريق طويل. ستكون هناك أيام أعود فيها لعادات قديمة. لحظات ألقى فيها القمامة، أبرر رشوة، أؤذي من لا يقدر على الرد. ستكون هناك انتكاسات. أشخاص يختارون الخدر بدل اليقظة. أنظمة تقاوم التغيير. لكنني لست وحدي. ملايين السوريين يستيقظون معي. نبني شيئاً لم يوجد في ذاكرتنا الحديثة: مجتمع يخلصنا جميعاً، حيث كرامة كل شخص مهمة، حيث الثقة ممكنة، حيث ينمو طفل بلا خوف. هذا يستحق النضال، و يستحق الانتكاسات. و يستحق صعوبة التعلم من جديد. العمل لم ينتهِ. بل بالكاد بدأ. لكننا عبرنا أصعب عائق: كسرنا السلاسل. الآن لنكسر الظلال. الآن نختار من نريد أن نكون.

الأساس الإسلامي:

الأساس الإسلامي

«إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» (أحمد)

«سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومها وإن قل» (البخاري)

لسنا نبحت عن الكمال، بل عن الاستمرارية. شخص واحد يختار الصواب، ثم آخر، ثم آخر... حتى يتغير الكل.

تأمل

ما الدور الذي أختاره في هذه اليقظة؟
هل أنا قائد، داعم، معالج، معلم؟
ما عطائي لسوريا الجديدة؟

الالتزام الختامي

لقد انتهى الانتظار للحصول على إذن لأكون صالحاً.
انتهى لوم العالم على قسوة قلبي.
انتهى التظاهر بأن فسادى الخاص منفصل عن ألمانا العام.
انتهى التدخين في الأماكن المغلقة واعتباره حرية.
انتهى الركن بتهور واعتباره حقى.
انتهى الخدر واعتباره بقاء.
أختار أن أنهض.
أختار أن أتعلم من جديد.
أختار أن أشعر مرة أخرى.
أختار أن أرى كرامة جاري في معاملتي له.
أختار أن أكون أميناً، لا تابعاً.
أختار الكلام بالحق للخير العام.
أختار قتل الشائعات و درء الفتن.
أختار أن أساهم في الحلول لا في المشاكل.
أختار أن أكون ابن بلد بار.
وأبني أمة يعرف فيها أحفادي معنى الحرية الحقيقي:
ليس فقط الحرية من الطاغية، بل الحرية لأن نصبح ما كنا دائماً مُقدِّرين أن نكونه. قال رسول الله (فإنها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده).
هذه ليست سذاجة. و ليست ضعفاً.
بل إنه أهم شيء سنقوم به على الإطلاق. سنفعله معاً بإذن الله.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ (نوح: 10-11)
﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: 33)

لا تنسونا بدعائكم.
وفقنا الله و سدد خطانا لما يرضاه
أبو فراس

اللهم عرفنا نعمك بدوامها لا بزوالها